القضايا الذاتية
وعلاقتها بالفكر الجمعي عند ذي الرمة

الباحثة/ أميرة أشرف عمر محمد

الملخص باللغة العربية:

إن ذي الرمة شاعر الحب والصحراء، ابن الطبيعة الحية والبيئة الجغرافية الداعية وبقوة للتأمل والهُيام، مما جعله لا ينفرد بالفكر الذاتي، وإنما يقف على كل تجربة فردية ويشرك فيها الفكر الجمعي؛ ليعبر بذلك عن فكر متعدد وتجارب عامة، وليس تجربة خاصة قاصرة عليه، وذو الرمة من الشعراء الذين عنوا بالذات والمجتمع في بوتقة واحدة، مما دفع الباحثة دفعًا إلى اختيار هذا الموضوع، وتهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على نماذج من شعر ذي الرمة الذاتي وبيان علاقته بالفكر الجمعي للمجتمع آنذاك، وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن تقسم الدراسة إلى مباحث حسب نماذج القضايا الواردة في شعره.

الكلمات الدالة: الذات، المرأة، التوحد مع مظاهر الطبيعة، التجربة الشعرية، الوجود، الاغتراب...

Abstract in English:

Dhul-Rama is considered the poet of love and the desert, the son of living nature and a geographical environment that strongly invites contemplation and fascination. In this way, it expresses multiple ideas and general experiences, and not a private experience that is limited to it, and Al-Reem was humiliated among the poets who dealt with self and society in one crucible, which prompted the researcher to choose this topic. The collective society at that time and the nature of the study required dividing the study into sections according to the models of issues contained in his poetry.

Keywords: self, women, autism with the manifestations of nature, poetic experience, existence, alienation ...

مقدمة:

إن التجربة الشعرية تنبع في الأساس من الباطن بوصفها ترجمة للشعور ونقلًا للتجربة الشعورية، وإذا كان الشاعر هو لسان حال الأمة يعبر عن قضاياها وفكرها الجمعي على شتى محاوره، فمن الأحرى أن يعبر عن خلجاته وهمومه وآلامه التي تشكل له تحديًا داخليًا وقضايا ذاتية، حيث إن مفهوم الذات هو "مجموعة من التقديرات التي يعطيها الحسنة والسيئة التي تتضمنها عبارات الاختيار من حيث درجة توافرها في ذاته، وأن تقدير الفرد لذاته يمكن أن يتكون من علاقاته بالآخرين، فهو يرتبط بعلاقة الفرد بالمجتمع الذي يعيش فيه الأفراد المحيطون ويعيشون معهم".[١]

والشاعر الحق هو "الذي يعطي قدرًا من الحرية في إبداعه، ويمنحه مساحة إضافية للقول، ويُبيح له أن يعلن رأيه في الحياة والموت، والكون والوجود، ويُسمح له بالتعبير عن مشاعره ومكنونات نفسه كما يحسها هو، لا كما أحسّها غيره ممّن سبقوهُ، وينقل إلينا تجاربه التي عاشها هو، لا تجارب غيره"، خاصة وأن الشعر هو أقدر الفنون العربية تعبيرًا عن مكنونات النفس، وأشدها استطاعة على صياغة التجربة الشعورية وهموم الوجود الإنساني، فالشعر يحمل خصوصية متفردة في ترجمة المشاعر والأفكار، ويتسع أكثر ما يتسع لنقل هواجس الفرد وتصوير خلجات نفسه تصويرًا دقيقًا.

ولا تبالغ الباحثة إن ذهبت– افتراضًا– إلى أن هذا النمط من القضايا هو أكثر القضايا استئثارًا بشعر الشاعر، وهذا منطقي للغاية لأن قضايا ذاته لن ينفث عنها بهذه الصورة سواه، حيث إن الذات "هي الجزء من المجال الظاهري الذي يتحدد علي أساسه السلوك المميز للفرد، كذلك... فالطريقة التي ندرك بها ذاتنا هي التي تحدد نوع شخصيتنا، فإن فكرة الفرد عن نفسه هي النواة الرئيسة التي تقوم عليها شخصيته."[٢] وقد كشف هذا الجانب عن مجموعة من القضايا التي تعبر عن ذاته ومنها إلى التعبير عن الغير الجمعي، لذلك اختارت الباحثة هذا الموضوع، وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن تقسم هذه الدراسة إلى مبحثين يتخللهما مطالب، وتعقبهما نتيجة.

١- نمو القدرة الابتكارية وعلاقتها بنمو تقدير الذات، هانم عبد المقصود، رسالة ماجستير، كلية التربية– جامعة عين شمس، ١٩٨٣م، ص ١٤.

٢- تقدير الذات وعلاقته ببعض المخاوف لدى الطفل الأصم، لبنى الطحان، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، ١٩٩٥م، ص٣٧.

المبحث الأول: صور قضايا الإنسان الذاتية التي وقف عليها الشاعر في شعره، لقد تعددت القضايا الذاتية التي وقف عليها الشاعر في شعره والتي لها علاقة وثيقة بالفكر الجمعي من حوله، وتذكر الباحثة أهمها نسبة في وروده على النحو التالي:

- علاقته بالمرأة:

إن المرأة هي الشطر المتمم لتجربة ذي الرمة الشعرية إلى جانب الصحراء، فقد ثبت من خلال استقراء إبداعه أن "الحب والصحراء هما المعبودتان اللتان شغف بهما حبًا، وعاش حياته القصيرة التي مرت كحلم ليلة من ليالي الصيف في محرابيهما، يسبح بهما، ويوقع في حبهما على قيثارته الحالمة أجمل وأروع ما استمعت إليه البادية العربية من أنغام وألحان راح يسكب فيها نفسه الرقيقة ويذوّب بها روحه المرهفة "(١). وذلك من خلال غرضي الغزل والوصف، حيث اعتمدهما الشاعر في صياغته لعشقياته التي تفرد بها، وإذا كان الغزل عند من عرفه هو "إلف النساء والتخلق بما يوافقهن"(٢). فإن ذي الرمة من الشعراء المجودين له والبارعين فيه، حيث كان ممن عنوا بهذا الفن الشعري المرهف، وبذلك أشار صاحب وفيات الأعيان بأن "أحد عشاق العرب المشهورين بذلك، وصاحبته (ميَّة) ابنة مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم المنقري"(٣). ومن جملة ما قال فيها: (الطويل)

وَقَد كُنتُ مِن مَيٍّ إِذ الحَيُّ جيرَةٌ ... عَلى البُخلِ مِنها مَيَّتَ الشَوقِ ساليا

أَقولُ لَها في السِرِّ بَيني وَبَينَها ... إِذا كُنتُ مِمَّن عَينُهُ العَينُ خاليا

تُطيلينَ لَيّاتي وَأَنتِ مَليَّةٌ ... وَأُحسِنُ يا ذاتَ الوِشاحِ التَقاضيا

وَأَنتِ غَريمٌ لا أَظُنُّ قَضاءَهُ ... وَلا العَنَزيَّ القارِظَ الدَهرَ حابيا

وَكُنتُ أَرى مِن وَجهِهِ مَيَّةَ لَمحَةً ... فَأَبرَقُ مَغشِيًّا عَلَيَّ مَكانيا

وَأَسمَعُ مِنها نَبأَةً فَكَأَنَّما ... أَصابَ بِها سَهمٌ طَريرٌ فُؤاديا

وَأَنصِبُ وَجهي نَحوَ مَكَّةَ بِالضُحى ... إِذا كانَ مِن فَرطِ اللَيالي بَدا ليا

أُصَلّي فَما أَدري إِذا مَا ذَكَرتُها ... أَثَنَتَينِ صَلَّيتُ الضُحى أَم ثَمانيا

---

(١) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء، يوسف خليف، دار المعارف، مصر، ط ١ ، ١٩٦٨م، ٩ .

(٢)العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني،تحقيق: محمد عبد الحميد،المكتبة التجارية الكبري مصر،ط ٣،ج ١، ١٩٦٣م، ١١٦/٢ ، ١١٧ .

(٣)وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي،المتوفى: ٦٨١هـ،المحقق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧١م، ١٨٤/٣ .

وَإن سِرتُ في الأَرضِ الفَضاءِ حَسِبتُني أُدارِئُ رَحلي أَن تَميلَ حِبالِيا
يَمينًا إِذا كانَت يَمينًا وَإِن تَكُن شِمالًا يُنازِعني الهَوى عَن شِمالِيا
رَأَيتُ لَها ما لَم تَرَ العَينُ مِثلَهُ لِشَيءٍ فَإِنّي قَد رَأَيتُ المَرائِيا
هِيَ السِحرُ إِلّا أَنَّ لِلسِّحرِ رُقيَةً وَأَنّي لا أَلقى لِما بِيَ راقِيا[1]

لقد وقف ذو الرمة هنا موقفًا عاطفيًا من حديثه عن مية، بل وفي استحضاره لها، فهو في حالة ابتعاد دائم ولكنه يمني نفسه بالوصول والوصال، وهو الذي أذهب الحب لبه، وشتت فكره، وليس مجرد البعد المكاني حل بينهما، بل إن البيد عن العين هو أقرب المقربين للقلب، وأبعد ما يكون عن الوصال، وهو يقدسها لدرجة استحال معها الشفاء مما مسه من سحر لأنه لا يجد لذلك رقية كما يرقي المسحور، فهو هنا يشكل حالة قداسة للمرأة، ويحاول الاندفاع ليصل إليها، ويقررها في هالة من القداسة وكأنها حلم[2]. لذلك قال النقاد في مثل هذه النماذج إن: "حب الشاعر أصيل عميق، متغلغل في أبعاد النفس والعقل لم يكد رسيسه يبرح"(٣).

لقد شكل ذو الرمة من خلال عشقه قضيةً بأن أثبت للقارئ أن "الحب مغامرة خلف المرأة وصراعًا من أجلها، يسره فيه أن يسوء الغيور ويساعف حاجات الغواني ويساير ركبان الصبا التي تغريه بالاندفاع خلفها والانطلاق وراءها، يتمثله بخياله الصغير عيونًا جميلة وأجسادًا ممتلئة ناعمة ونساء ظامئات إلى الشباب متعطشات إلى الحب يخفين في قلوبهن أهواءهن التي تظهر على الرغم من كل شيء في عيونهن الطامحة المتطلعة إلى بعيد"(٤)

وهو في ذلك يقول: (الوافر)

فَهِجتِ صَبابَتي وَلِكُلِّ إِلفٍ تَهيجُ الشَوقَ مَعرِفَةُ العُهودِ
غَداةَ بَدَت لِعَيني عِندَ حَوضى بُدُوَّ الشَمسِ مِن جِلبٍ نَضيدِ[5]

---

[1] – ديوان ذي الرمة، تحقيق: عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت– لبنان،ط ١، ١٤٢٧هـ– ٢٠٠٦م،ص٢٧٧–٢٧٨.

[2] – ينظر: سوسيولوجيا الغزل العربي (الشعري العذري نموذجا)، الطاهر لبيب، ترجمة: مصطفى المسناوي، مركز دراسات الوحدة العربية، دار عيون– دار الطليعة، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ٩٤–٩٥.

[3] ذو الرمة دراسة ونقد، طراد الكبيسي، وزارة التربية والتعليم، بغداد، العراق، د. ط، ١٩٩٦م، ٧٨–٧٩ .

[4] ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ١٠٥

[5] – الديوان، ص٧٥

من الطبيعي أن تحدث هذه المرأة تأثيرها في الشاعر مادامت هي بكل هذه القدسية وهذا المقام، حتى إنها كانت المحرك الأول الذي تغنى بها وحرك قريحته الشعرية، حتى صنع من اللوعة إبداعًا وصنع من عشقه تجربة ساعدته في امتلاك ناصية التصوير ليصيغ تلك الأحاسيس الموجعة المبدعة، فهو يذكر لوعة شوقة الي هذه المحبوبة مما جعله يبدع في تصوير هذه الأحاسيس المؤلمة المبدعة، وكذا كل ما يخصها ويربطهما.١

ومن خلال هذا المنطلق وقف ذو الرمة على وصف حالته النفسية بإبداعية، عندما قام بتصوير شوقه وعدم مقدرته على كتمانه إثر حبه وعشقه كما المحبين، فهو في ذلك مثله مثل الجميع ممن يشكل عليهم البعاد أزمة وقضية ذاتية٢، فيقول في ذلك: (الطويل)

فَما زالَ في نَفسي هُلاعٌ مُراجِعٌ مِنَ الشَوقِ حَتّى كادَ يَبدو ضَميرُها[٣]

وكذلك كان الغزل في شعر ذي الرمة يشير إلى علاقته بالمرأة

- **قضية الوجود والبقاء:**

لقد التفت العديد من النقاد إلى إبداعية ذي الرمة التي تجلت في صياغته لمضامينه، وتعبيره عن تجربته بأرق لفظ وأدق معنى، ومن هؤلاء كان الجرجاني (ت ٣٩٢هـ) حين قال: "وإذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب، وعظم غنائه في تحسين الشعر، فتصفح شعر جرير وذي الرمة من القدماء"(٤)، والمناضل بحق المشغول بقضايا أمته هو الذي يتأمل الكون من حوله ويمزجه بذاته، فها هو ذو الرمة يتحدث عن ناقته ظاهرًا ولكن في الحقيقة هو يتحدث عن نفسه ويصور لنا باطنه حين يقول: (الطويل)

وَكائِن تَخَطَّت ناقَتي مِن مَفازَةٍ وَكَم زَلَّ عَنها مِن جُحافِ المَقادِرِ

وَكَم عَرَستَ بَعدَ السُرى مِن مُعَرِّسٍ بِهِ مِن كَلامِ الجِنِّ أَصواتٌ سامِرِ

إِذا اِعتَسَّ فيهِ الذِئبُ لَم يَلتَقِط بِهِ مِنَ الكَسبِ إِلّا مِثلَ مُلقى المَشاجِرِ

---

١ –الأبعاد النفسية في شعر ذي الرمة، مفيدة عجرود، رسالة ماجستير، قسم اللغة والأدب العربي، معهد الآداب واللغات، المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصف لميلة، الجزائر، ٢٠١٩م– ٢٠٢٠م، ص٥٩

٢ –الأبعاد النفسية في شعر ذي الرمة، ص٥٩

٣– الديوان، ص١٤٢

(٤) الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني(ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة البابي الحلبي،القاهرة،١٩٦٦م،د. ط،٢٤٤–٢٢٥.

مُنـــاخَ قُـــرونِ الـــرُكبَتَينِ كَأَنَّـــهُ مُعَـــرِّسُ خَمـــسٍ مِـــن قَطًـــا مُتَجـــاوِرِ
وَقَعـــنَ اِثنَتَـــينِ وَاِثنَتَـــينِ وَفَـــردَةً حَريـــدًا هِـــيَ الوُســـطى بِـــصَحراءَ حـــائِرِ
وَبَينَهُمـــا مُلقـــى زِمـــامٍ كَأَنَّـــهُ مَخـــيطَ شُـــجاعٍ آخِـــرَ اللَيـــلِ ثـــائِرِ
وَمَغفـــى فَتـــىً حَلَّـــت لَـــهُ فَـــوقَ رَحلِـــهِ ثَمانِيَـــةً جُـــردًا صَـــلاةُ المُـــسافِرِ
سِوى وَطأَةٍ في الأَرضِ مِـن غَيـرِ جَعَـدةٍ ثَنـى أُختَهـا فـي غَـرزِ عَوجـاءَ ضـامِرِ
وَمَوضِـــعِ عِـــرنينٍ كَـــريمٍ وَجَبهَـــةٍ إِلـــى هَـــدَفٍ مِـــن مُـــسرِعٍ غَيـــرَ فـــاجِرِ
طَوى طَيَّـــةً فَـــوقَ الكَـــرى جَفـــنَ عَينِـــهِ عَلـــى رَهبـــاتٍ مِـــن جِنـــانِ المَحـــاذِرِ[1]

يصور لنا الشاعر الكر والفر الذي تحياه ناقته، والأميال التي تقطعها متجاوزة كل الصعاب، وتصانع فيها الدنيا لتنجى من المخاطر، وهو بذلك يعول على نفسه لما لاقى من مخاطر، فهو يناقش قضية جوهرية من قضايا الوجود وهي الخطر الذي يداهم المرء طيلة حياته فيصارعه كما تصارع الناقة ما يقابلها من ملمات خاصة وأن كليهما، فأي ذات تخشى الخطر وتتملص منه وتطارده، حتى وإن كانت الذات المقابلة حيوانية، والخطر مطروح الطريق مادام المرء حي، لأن الحياة حفت بالمخاطر، وهي الوجود والبقاء في حال الخطر٢.

وما تجلت هذه الإبداعية الشعرية إلا من خلال "حيوية الصورة وقدرتها على الكشف والإثراء، وتفجير بُعْدٍ تِلْوَ بُعْدٍ من الإيحاءات في الذات المتلقية، ترتبطان بالاتساق والانسجام اللذين يتحققان بين هذين المستويين للصورة"(٣). ويعاود ذو الرمة الكشف عن قضاياه الذاتية من خلال حديثه ووصفه لناقته تلك التي كانت شريكة الوطن والفكر بل والقضية والذات، يقول: (الطويل)

وَحَـرفٍ نِيـافٍ الـسَمكُ مُقَـورَّةِ القَـرا دَواءُ الفَيـــافي مَلعُهـــا وَخَبيبَهـــا
كَـــأَنَّ قُتُـــودي فَوقَهـــا عُـــشُّ طـــائِرٍ عَلـــى لينَـــةٍ سَـــوقَاءَ تَهفـــو جُنوبُهـــا
أَقَمـــتُ بِهـــا إِدلاجَ شُـــعثٍ يُمـــيلُهُم سَـــقامُ الـــسُّرَى تَوصـــيمُها وَدَبيبُهـــا[4]

[1] – الديوان، ص١٣٧ – ١٣٨

[2] –الأنا الأعلى في الذات العربية، البطل في التصوف والأنثروبولوجيا والفنون والأحلام: د. علي زيعور، آفاق عربية، ع٥، ١٩٨٠: ٢٧.

[3] جدلية الخفاء والتجلي، كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٣، ١٩٨٤م، ص ٢٢ .

[4] – الديوان، ص٤٠

إن الناقة في فكر ذي الرمة تعتبر المعادل الموضوعي لذي الرمة الشاعر/ الإنسان، الذي يحاول أن يفرض وجوده في دنيا الوجود، يتطلب الوصول إلى القمة كما تصل ناقته إلى مرادها، ومن منا لا تشغله ذاته برغبة الوصول ويراوده الطموح مرة ومرات، وهو فوق رحله كأنه في عش يحمله إلى الأمان والطفولة، ومن العجيب هذه الرقة في الصحراء، التي حفت بالجمودية، ولكن هو الاغتراب الذاتي.

لقد اشتركت الناقة وغيرها من الحيوانات مع ذي الرمة في محاورته للوجود، حتى قيل إن "وصف الحيوان في ديوان ذي الرمة حديث نفس قبل أن يكون حديث حس... وفي هذا الحديث يفيض ذي الرمة ببيان المشاعر والعواطف، فهو على النفس الباطنية يصدر، لا عن العين الظاهرة، وهو لذلك يمتع من يطيل النظر في لوحاته، إذ يجد فيها معيناً لا ينضب من حركات النفس ومشاعرها"(١).

ومن هنا نجده يعرض صورة للحياة والوجود بصورة وصفية سردية منفرة يعلن فيها مقته وغضبه، من خلال وقوفه على الماء الآجن الراكد، يقول فيها: (الطويل)

وَيَومٍ يُظِلُّ الفَرخُ في بَيتِ غَيرِهِ ... لَهُ كَوكَبٌ فَوقَ الحِدابِ الظَواهِرِ

تَرى الرَكبَ فيهِ بِالعَشِيِّ كَأَنَّما ... يُدانونَ مِن خَوفٍ خَصاصَ المَحاجِرِ

تَلَثَّمتُ فَاستَقبَلتُهُ ثُم مِثلَهُ ... وَمِثلَيهِ خِمسًا وِردُهُ غَيرُ صادِرِ

وَماءٍ كَماءِ السُخدِ لَيسَ لِجَوفِهِ ... سَواءَ الحَمامِ الوُرقِ عَهدٌ بِحاضِرِ

صَرى آجِنٌ يَزوي لَهُ المَرءُ وَجهَهُ ... وَلَو ذاقَهُ ظَمآنُ في شَهرِ ناجِرِ

وَرَدتُ وَأَغباشُ السَوادِ كَأَنَّها ... سَمادِيرُ غَشيٍ في العُيونِ النَواظِرِ

بِرَكبٍ سَرَوا حَتّى كَأَنَّ اِضطِرابَهُم ... عَلى شُعَبِ المَيسِ اِضطِرابُ الغَدائِرِ

تَعادَوا بِيَهيا مِن مُدارَكَةِ السُرى ... عَلى غائِراتِ الطَرفِ هُدلِ المَشافِرِ

لقد جعل ذو الرمة من فكرة موروثة عن الحياة وهي (كون الماء أساسها) إلى الوقوف على الماء الراكد والآجن، ليصور بذلك رفضه للحياة، وتعبيره عن عدم الوجود فيها، ليقرر بذلك صورة آثمة للحياة ومكروهة، ليرجع بنا إلى ما قبل التاريخ البشري وكأنه تائه عن الوجود، لينتقل من ذلك إلى الوصول إلى سر الوجود في التيهاء وما يحيط

(١) التطور والتجديد، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط ٦، ١٩٧٧م، ٢٥٦، وينظر: الديوان ٢٨٦-٤٩٥-٣٧٠- ٢٤٨- ٤٩٧- ٣٦٤.
٢- الديوان، ص١٣٦.

بها، وهو البدوي الذي تتراءى له كل مقومات التأمل وبواعث الحياة، خاصة أن ماء السخد هو (الماء المنبعث من الولادة) وهذه إشارة أخرى لمقومات الحياة، فكل الاختيارات التي طرح ذو الرمة قضية الوجود من خلالها ومن هنا جاءت عظمته وإبداعه، قال الشافعي " ليس يقدم أهل البادية على ذي الرمة أحدًا، حتى ليذهبوا إلى حد تفضيله على امريء القيس، بل لو كلف أمرؤ القيس أن ينشد شعر ذي الرمة ما أحسنه"(١) .

حتى إنه ينطلق إلى تقرير مصيره من خلال تأكيد شاعريته، حين يفخر بنفسه وبشعره محاولة منه إلى إثبات وجوده، وليس ذلك فحسبٍ وإنما وجود يعلو كل وجود، يقول: (الطويل)

وَشَعر قَد أَرقتُ لَهُ غَريبٍ أُجَنِّبُهُ المَساند وَالمَحالا

فَبِتَّ أُقيمُهُ وَأَقُدُّ مِنهُ قَوافي لا أُعِدَّ لَها مِثالا

غَرائِبُ قَد عُرِفنَ بِكُلِّ أُفقٍ مِنَ الآفاقِ تُفتَعَلُ اِفتِعالا

فَلَم أَقذِف لِمؤمِنَةٍ حَصَانٍ بِحَمدِ اللهِ موجِبَةً عِضُالا

وَلَم أَمدَح لأُرضِيَهُ بِشِعري لَئيمًا أَن يَكونَ أَصابَ مالا

وَلكِنَّ الكِرامَ لَهُمُ ثَنائي فَلا أَخزى إِذا ما قيلَ قالا[٢]

حتى إننا من خلال هذه المعاني نتأكد من المضامين التي دفعت بالشعر إلى التطور والتجديد عما كان عليه في العصرين السابقين عليه، حيث إنه "تطور في هذا العصر تطورًا لم يقف عند السطح والظاهر فحسب، بل تناول الداخل، النفس وأحاسيسها، فانطبقت فيه روح كانت تتأثر بالإسلام كما كانت تتأثر بالعقل الجديد، ولم يلبث ذو الرمة أن نفذ من خلالها إلى هذه الروعة في التمثيل، وذلك الإحساس بالكون، فانفتح باب في التصوير الشاعري كان مغلقًا، باب كله حلم ورؤى بهيجة"(٣)

فمواطن الافتخار في شعر ذي الرمة اعتمدت على أسباب تتعلق بالدين الإسلامي ومبادئه الأخلاقية، حيث ذم النفاق بغية المصلحة والكسب، أو قول الشعر للنيل من

---

(١) روضات الجنان، الخوانساري الأصبهاني، مراجعة: محمد علي الروضاني، د. ط، د. ت، ٤٩٧ .

٢- الديوان، ص ١٩٨.

(٣) التطور والتجديد، د. شوقي ضيف ، مرجع سابق، ٢٦٧-٢٦٨ .

أنثى، وانصراف الشعر لتوجيه الأنظار ناحية الكرام وأهل الفضل ممن يتوجب الثناء، وكل هذه الفضائل تقوي صلة الإنسان بالأرض ومن عليها، بل تقوي صلته بخالقه.

ولعل خلوصه إلى الصحراء وانفراده في التيهاء هو ما جعله على هذا القدر من الفكر والتأمل، حيث إنه كان قابعًا "في أكثبة الدهناء في اليمامة ولم يخرج منها إلا لحاجة ثم لا يلبث أن يعود إليها"(١).

ولعل ذلك أورثه التعلق بالأماكن والديار لأنه لم يعهد الترحال إلى خارج حدود موطنه، ومن هنا تولدت قضية ذاتية أخرى، وهي القلق وبكاء الديار.

قضية الحرمان:

من الطبيعي أن شخصية مترنحة مثل شخصية ذي الرمة تتناطح فيها الذات مع قضايا المجتمع، فنجد اللاوعي عنده ينبيء عن شيء من الحرمان واللوعة، خاصة مع ما لاقاه من ويلات الافتقار"الذي ظل يلح عليه، فعبر عن نفسه بتلك الصور التي تكررت بصفة لازمة ألقت بظلالها النفسية على معظم شعره"(٢).

يقول ذو الرمة: (الرجز)

مـا هـاجَ عَينَيـكَ مِـنَ الأَطـلالِ ... المُزمِنـاتِ بَعـدَكَ البَـوالي

كَـالوَحيِ فـي سَـواعِدِ الحَـوالي ... بَـينَ النَقـا وَالأَجـرَعِ المِحـلالِ

وَالعُفـرِ مِـن صَـريمَةِ الأَدحـالِ ... غَيَّرَهـا تَناسُـجُ الأَحـوالِ

وَغِيَـرُ الأَيّـامِ وَاللَيـالي ... وَهَطَـلانُ الهَـضبِ وَالتَهتـالِ

مِـن كُـلِّ أَحـوى مُطلَـقِ العَزالـي ... جَـونِ النِطـاقِ واضِـحِ الأَعـالي

فَاسـتَبدَلَت وَالـدَهرُ ذو اِسـتِبدالِ ... مِـن سـاكِنيها فِـرَقَ الآجـالِ

فَرائِـدًا تَحنـو عَلـى أَطفـالِ ... وَكُـلَّ وَضّـاحِ القَـرى ذَيّـالِ

فَـرد مُوَشّـىً وَشـيَةَ الأَرمـالِ ... كَأَنَّمـا هُـنَّ لَـهُ مَـوالي

فَـانظُر إِلـى صَـدرِكَ ذا بَلبـالِ ... صَـبابَةً بِـالأَزمُنِ الخَـوالي

شَـوقًا وَهَـل يُبكـي الهَـوى أَمثـالي ... لَمّـا اِسـتَرَقَّ الجَـزعُ لِانزِيـالِ

---

(١) روضات الجنان، الأصبهاني الخوانساري، مرجع سابق، ٤٩٧ .

(٢) ذو الرمة – شمولية الرؤية وبراعة التصوير، د. خالد ناجي السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ٢٠٠٢م، ٢٦٢ .

وَلا هِـــزاتُ الـــصَيفِ بِانفِـــصالِ وَلَـــيسَ إِذ حـــاذَينَ بِـــالأَقوالِ[1]

لقد قام هذا النص على بيان صورة اللا ديار، من حيث إنها تعبير عن دار خاوية خربة مدمرة، بالية من أثر الزمن شوهاء، هاشة، فهي لا دار بعد أن كانت دارًا، وفي المقابل، صورة الحياة المشعة البهيجة التي تنبض بالفاعلية والإحساس، تلك التي تجسدت في عالم الحيوان والناقة والظباء من حيث توالدها وتكاثرها بحركة خلق تجددية، وممارسة الأنشطة الحياتية التي تساعد على مواكبة الحياة واستراريتها، مثل التعبير برمز الخصوبة، المتمثل بالثور (بعل) ، وكل ذلك إشارة إلى حركة الوجود في مقابل الموت المتمثل في الأطلال البالية، وهنا يأتي العجب من الشاعر عن سر البكاء هنا؟

و"خطاب الذات هو إحساس بالانفصام عن ذاته وانشطارا فكأنه يخاطب ذاتا غيره، ولايتركنا الشاعر حائرين أمام أسئلته واستفسارته بل يجيبنا ويجيب ذاته بأنه الشوق والحنين إلي الأيام الماضية التي مثلت له الحيوية والإخصاب، أمام حاضر مفتت تدميري لشعوره بالشيخوخة وتقادم السن(وهل يبكي الهوي أمثالي .. لما استرق الجزء لا نزيال)"[2]

ووقوفه على هذه المقابلة بالاستفهام، صورة من صور العجز إثر الحرمان والشعور باليأس، وهو بذلك يحاول الفكاك من هذا العجز ليخلص إلى المواجهة، والتملص من نوائب الزمن وقهره.[3]

وقد تولد لذي الرمة حرمان مضاعف مع الغياب، حيث إنه افتقر للقاء وافتقر للمكان وافتقر للمرأة حتى أضحت ذكرى، ويقول في ذلك: (الطويل)

سَـرى مَوهِنًـا فَـالتَمَّ بِالرَكـبِ زائِـرٌ بِخَرقـاءَ وَاسـتَنعى هَـوىً غَيـرَ عـازِفِ

فَبِتنـا كَأَنّـا عِنـدِ أَعطـافِ ضُـمَّرٍ وَقَـد غَـوَّرَت أَيـدي النُجـومِ الـرَوادِفِ

أَتَتنـا بِرَيّـا بُرقَـةٍ شـاجِنِيَّةٍ حُـشاشاتُ أَنفـاسِ الريـاحِ الرَواجِـفِ

دَهـاسٍ سَـقَتها الـدَلوَ حَتّـى تَنَطَّقَـت بِنَـورِ الخَزامـى فـي الـتِلاعِ الجَوائِـفِ

وَعَينـاءَ مِبهـاجٍ كَـأَنَّ إِزارَهـا عَلى واضِـحِ الأَعطـافِ مِـن رَمـلِ عـاجِفِ

---

[1]– الديوان، ص٢١٣ – ٢١٤

[2]–الرؤية في شعر ذي الرمة، آنت حسين محمود الجلبي، العدد: مج ٨، ٢٠٠٤،ج١٦، ص٢٢.

[3]–الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، ١٠٨

تَبَسَّمَ عَن أَحوى اللِثاتِ كَأَنَّهُ ذُرى أُقحُوانٍ مِن أَقاحي السَوائِفِ
دَعَتني بِأَسبابِ الهَوى وَدَعَوتُها بِهِ مِن مكانِ الإِلفِ غَيرِ المُساعِفِ[1]

إن المرأة هي سر الحياة وسر تجددها واستمراريتها، فإذا غابت وورحلت أضحت ذكرى، والذكرى حرمان، وكلما حرت تجدد هذا الحرمان وبالغ في عمق الألم، ولعل في المكان شفاءً لحرمانه بأن يرى فيه طيفاً للحبيبة، ويتخلص من تلك الأزمة.

ويقول كذلك: (البسيط)

زارَ الخَيالُ لِمَيٍّ بَعدَ ما رَحَلَت عَنّا رَحى جابِرٍ وَالصُبحُ قَد جَشَرا
بِنَفحَةٍ مِن خُزامى فايِحٍ سَهِلٍ وَزَورَةٍ مِن حَبيبٍ طالَ ما هَجَرا
هَيهاتَ مَيَّةُ مِن رَكبٍ عَلى قُلُصٍ قَدِ اِجرَهَدَّ بِها الإِدلاجُ وَانشَمَرا[2]

إن البعد لا يخاطر الإنسان ولا يشعر به إلا إذا شعر بفقد لذة لم تعد موجودة، فطيف الحبيبة يداهمه لأنه حرم منه، ولولا هذا الحرمان لما كان لذكراها قيمة، وكأن ذو الرمة جاء لينبه على أن في الحرمان لذة، ويثلج قلب كل أصحاب القضية، فيوهمنا بالرحلة التي قام بها ذو الرمة ليعالج شوه قلبه إثر الحرمان من رؤية المحبوبة. وهو بذلك يعبر عن قلق من حضور الزمان وبعد المكان والتيه الذي يتولد إثر ذلك، ليحلل لنا نفسية كل من يكون على هذه الشاكلة فيعذرُ، وفي قوله: (الطويل)

أَمِن مَيَّةَ اِعتادَ الخَيالُ المُؤَرِقُ نَعَم إِنَّها مِما عَلى النَأيِ تَطرُقُ
أَلَمَّت وَحُزوى عُجمَةُ الرَملِ دونَها وَخَفّانُ دوني سَيلُهُ فَالخَوَرنَقُ
بِأَشعَثَ مُنقَدٍّ القَميصَ كَأَنَّهُ صَفيحَةُ سَيفٍ جَفنَهُ مُتَخَرَّقُ
سَرى ثُمَّ أَغفى عِندَ وَجناءَ رَسلَةٍ تَرى خَدَّها في ظُلمَةِ اللَيلِ يَبرُقُ[3]

لقد اعتمد الشاعر اعتمادًا كليًا على طيف المحبوبة، ونفذ من خلاله إلى الخيال بطبيعته النفسية، ليعبر عن ذلك الباطن وجوانية الشاعر ويكون بذلك الأقدر على تحقيق ما يخالج النفس من تمثلات وصور، ونراه "في مواضع أخري يجعل من عناصر الطبيعة علامة سيميائية للفراق وألمه، فيجعل ريح الصيف الحار نذير شؤم لأن محبوبته ترحل

[1]- ديوانه، ص ١٧٤
[2]-ديوانه، ص٩٣، ٩٤
[3]-ديوانه، ص١٧٩

عند حلول الصيف، فالمكان الذي كانت تسكنه جف ماؤه وبيست كل النباتات لذلك ترحل القوافل إلي أماكن أخرى بحثًا عن الماء والكلأ فتفارقه محبوبته لأنها ترحل مع أهلها"[1]، فيقول في ذلك: (الطويل)

أَلَمّا يَحِنَّ القَلبُ إِلّا تَشوقُهُ رُسومُ المَغاني وَابتِكارُ الحَزائِقِ
وَهَيفٌ تَهيجُ البَينُ بَعدَ تَجاوُرٍ إِذا نَفَحَت مِن عَن يَمينِ المَشارِقِ
كَأَنَّ فُؤادي قَلبُ جاتي مَخوفَةٍ عَلى النَفسِ إِذ يَكسونَ وَشيَ النَمارِقِ
وَأَجمالِ مَيٍّ إِذ يُقَرَّبنَ بَعدَما وَخِطنَ بِذِبّانِ المَصيفِ الأَزارِقِ[2]

ويكفينا استشهادًا على عاطفة ذي الرمة المتقدة التي تتبع من ذات عاشقة أنه يصور آلام الفراق بهاته الصورة، وكأنها برحيلها وحرمانه رؤيتها قد تركت في قلبه جرحًا لا يدمى إلا برؤيتها، وأن طيفها الذي يساوره ما هو إلا محاولة للاستشفاء.

التوحد مع مظاهر الطبيعة (في مواجهة الاغتراب):

كل القضايا والمحاور الذاتية السابقة تقرر فكرة عامة وقضية لا مناص منها، وهي قضية الاغتراب، الذي يجعل الشاعر في قلق دائم، وذلك من حيث إن "الاغتراب غياب والغياب شقيق الموت، يجعل المرء السائر في سراديبه يقف وجهًا لوجه مع الموت يكابد قسوة اللقاء الكريه لكنه لا يموت، فيعود من جديد راكضًا لاهثًا وراء الأمل البارق، أمل اللقاء بذلك الحبيب الغائب فيجد الموت المعذب لا الموت المريح"[3].

من الطبيعي أن يشعر العرب بالغربة، وخاصة من كان ماكثًا في الصحراء، وعاش حياة البداوة ليلًا نهارًا مثل ذي الرمة، الذي اجتمعت العوامل على اغترابه في المجتمع عامة، وعن ذاته بصفة خاصة، لذلك فهو المحبط المقهور نفسًا وعشقًا مما أدى به إلى الاغتراب والنأي الباطني، يقول: (البسيط)

كَأَنَّني مِن هَوى خَرقاءَ مُطَّرَفٌ دامي الأَظَلِّ بَعيدُ السَأوِ مَهيومُ
دانى لَهُ القَيدُ في دَيمومَةٍ قُذُفٍ قَينَيهِ وَانحَسَرَت عَنهُ الأَماعيمُ
هامَ الفُؤادُ بِذِكراها وَخامَرَهُ مِنها عَلى عُدَواءِ الدارِ تَسقيمُ[4]

[1] – الأبعاد النفسية في شعر ذي الرمة، ص ٦٠.

[2] –ديوانه، ص١٨٣

[3] دلالة الاغتراب في شعر الشريف الرضي في ضوء الأسلوبية الشعرية التطبيقية، د. إيمان محمد أمين خضر الكيلاني، مجلة المنارة، العدد ١٣، المجلد ٣، ٢٠٠٧م، ص ٢٦٨.

[4] –ديوانه، ص٢٤٨

إن الهم يولد الحسرة والكسرة، ويؤدي إلى الكدر والشقاق والحزن، والذكرى تأتيه فبدل أن تؤنسه، نراها تؤرق عليه عيشه، وتقوده إلى القيد والانحسار، مثله في ذلك مثل البعير المقيد، يقول: (الطويل)

فَقَد أَورثَتني مَيَّ مِثلَ الَّذي بِهِ هَوى غَربَةٍ دانى لَهُ القَيدَ قاصِرُ

لَقَد نامَ عَن لَيلى لَقيطٌ وَشاقَني مِنَ البَرقِ عُلويُّ السَنا مُتياسِرُ

أَرقتُ لَهُ وَالثَلجُ بَيني وَبَينَهُ وَحَومانُ حُزوى فَاللَوى وَالحَرائِرُ[1]

حتى إنه يحاول الخلاص من هذا القيد، ولكن الغربة تأبى ذلك ولا تزده إلا كدرًا، حتى يأتي البرق منذرًا من طيف مية، مما دعا إليه ضيقه وقلقه واغترابه. ونراه يقول أيضًا: (الطويل)

أَرى ناقَتي عِندَ المُحَصَّبِ شاقَها رَواحُ اليَماني وَالهَديلُ المُرَجَّعُ

فَقُلتُ لَها : قِرّي فَإِنَّ رِكابَنا وَرُكب انَها مِن حَيثُ تَهوَينَ نُزَّعُ[2]

إن ذي الرمة توحد مع ناقته توحد لا فكاك منه، وقد قاده اغترابه إلى ابتداع المحاورة، وكأن ناقته تبث إليه اغترابها، عندما رأت الإبل اليمانية فقادها ذلك إلى الشوق وطلب العودة للوطن، فيشخص ناقته ويخبره بحنينه للملجأ والحنين... وقد كان يحاول بذكر مية أن يتقوى على هذا الاغتراب، ولم يفلحه بل يتداوى بالداء، يقول: (الطويل)

فَتِلكَ الَّتي يَعتادُني مِن خَبالِها عَلى النَأيِ داءُ السِحرِ أَو شَبَهُ السِحرِ[3]

وكأنه لما طلب عونًا على هذه الغربة زادته قلقًا وقيدًا، "أي أن فراقه لمية خلف حزنًا وألمًا في قلبه حتى أصابه داء السحر أي فساد الفؤاد من شدة الألم".٤ ورغم ذلك لم يستطع النتصار بالنسيان على السلوى، حيث إنه يتألى من الهجر وتزيده الذكرى ألمًا.٥ فيقول: (الطويل)

إِذا الهَجرُ أَودى طولُهُ وَرَقَ الهَوى مِنَ الإِلفِ لَم يَقطَع هَوى مَيَّةَ الهَجرُ[6]

---

[1] – ديوانه، ص١١٧

[2] –ديوانه، ص١٦١

[3] –ديوانه، ص١٢٧

[4] –الأبعاد النفسية في شعر ذي الرمة ، ص٦١

[5] – المرجع السابق، نفسه

[6] –ديوانه، ص١٠٥

حتى إن مجرد صوتها يحدث في القلب وخزةً، وخاصة بعد تمام الهجر، وزواجها من غيره مما يحقق كمال الاغتراب، يقول: (الطويل)

وأَسمَعُ مِنها نَبأَةً فَكَأَنَّما أَصابَ بِها سَهمٌ طَريرٌ فُؤادِيا[1]

إن ذي الرمة في هذا مثله مثل أي إنسان يتحسر للفقد ويقهر حين اليأس وقلة الحيلة، ولعل شعره كان أداة ألهمه الله إياها لينفس بها عن جوانيته، ويشارك المتلقين في قضايا تنبع من ذاته ونفسيته الخاصة إلا أنها تنطلق من رؤية شمولية وجمعية، لتصبح قضايا الذات قضايا عالمية، وتجربة مشتركة.

[1] –ديوانه، ص٢٧٧

الخاتمة والنتائج:

من خلال ما عرضت له الباحثة إجمالًا يتبين اهتمام ذي الرمة بالمجتمع من حوله والذي انعكس حتى في قضاياه الذاتية التي ينفس بها عن تجربته الخاصة؛ فنراه يقابل المرأة بالمجتمع ويتوحد مع مظاهر الطبيعة... وغير ذلك، وهو في ذلك لسان حال يترجم لقضايا مجتمعه من حوله ويعرب عن فكره، وقد خلصت الباحثة إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- إن التجربة الشعرية تنبع في الأساس من الباطن بوصفها ترجمة للشعور ونقلًا للتجربة الشعورية.
- إن هذا النمط من القضايا– الذاتي–هو أكثر القضايا استئثارًا بشعر الشاعر ، وهذا منطقي للغاية لأن قضايا ذاته لن ينفث عنها بهذه الصورة سواه.
- تشكيل ذي الرمة من خلال عشقه قضيةً بأن أثبت للقارئ أن "الحب مغامرة خلف المرأة وصراعًا من أجلها.
- إن الناقة في فكر ذي الرمة تعتبر المعادل الموضوعي لذي الرمة الشاعر/ الإنسان، الذي يحاول أن يفرض وجوده في دنيا الوجود، يتطلب الوصول إلى القمة.
- فمواطن الافتخار في شعر ذي الرمة اعتمدت على أسباب تتعلق بالدين الإسلامي ومبادئه الأخلاقية، حيث ذم النفاق بغية المصلحة والكسب، أو قول الشعر للنيل من أنثى، وانصراف الشعر لتوجيه الأنظار ناحية الكرام وأهل الفضل.

قائمة مصادر ومراجع البحث

١. الأبعاد النفسية في شعر ذي الرمة، مفيدة عجرود، رسالة ماجستير، قسم اللغة والأدب العربي، معهد الآداب واللغات، المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصف لميلة، الجزائر، ٢٠١٩م- ٢٠٢٠م.

٢. الأنا الأعلى في الذات العربية، البطل في التصوف والأنثروبولوجيا والفنون والأحلام: د. علي زيعور، آفاق عربية، ع٥، ١٩٨٠م.

٣. التطور والتجديد، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط ٦، ١٩٧٧م.

٤. تقدير الذات وعلاقته ببعض المخاوف لدى الطفل الأصم، لبنى الطحان، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، ١٩٩٥م.

٥. جدلية الخفاء والتجلي، كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٣، ١٩٨٤م.

٦. دلالة الاغتراب في شعر الشريف الرضي في ضوء الأسلوبية الشعرية التطبيقية، د. إيمان محمد أمين خضر الكيلاني، مجلة المنارة، العدد ١٣، المجلد ٣، ٢٠٠٧م، ص ٢٦٨.

٧. ديوان ذي الرمة، تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط ١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

٨. ذو الرمة دراسة ونقد، طراد الكبيسي، وزارة التربية والتعليم، بغداد، العراق، د. ط، ١٩٩٦م.

٩. ذو الرمة شاعر الحب والصحراء، يوسف خليف، دار المعارف، مصر، ط ١ ، ١٩٦٨م.

١٠. ذو الرمة – شمولية الرؤية وبراعة التصوير، د. خالد ناجي السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ٢٠٠٢م، ٢٦٢ .

١١. روضات الجنان، الخوانساري الأصبهاني، مراجعة: محمد علي الروضاني، د. ط، د. ت

١٢. الرؤية في شعر ذي الرمة، آن تحسين محمود الجلبي، العدد: مج ٨، ٢٠٠٤، ج١٦،.

١٣. سوسيولوجيا الغزل العربي (الشعري العذري نموذجا)، الطاهر لبيب، ترجمة: مصطفي المسناوي، مركز دراسات الوحدة العربية، دار عيون- دار الطليعة، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

١٤. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبري مصر، ط ٣، ج ١، ١٩٦٣م.
١٥. العمدة، ابن رشيق، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
١٦. نمو القدرة الابتكارية وعلاقتها بنمو تقدير الذات، هانم عبد المقصود، رسالة ماجستير، كلية التربية- جامعة عين شمس، ١٩٨٣م.
١٧. الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٦م، د. ط
١٨. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، المتوفى: ٦٨١هـ، المحقق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧١م.